

أدب الالتزام ومواقف الآداب العالمية منه

The Literature of Commitment and the Attitudes of International Literature Towards it

* سعيد سنوس¹، أ.د/ حسين فارسي²

Said snous , Pr. D/ Hocine FARSI

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان - الجزائر

مخبر الدراسات النقدية الأدبية وأعلامها في المغرب العربي من التأسيس إلى نهاية القرن العشرين

University : Abou Bakr BELKAID –Tlemecen- ALGERIA-

Laboratory : Literary critical Studies and their Media in the Maghreb from establishment to the end of the twentieth century.

saiidsns@hotmail.com¹ hocine.farsi@hotmail.com²

تاريخ النشر: 2021/09/02	تاريخ القبول: 2021/01/12	تاريخ الإرسال: 2020/11/07
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

تندرج هذه الدراسة ضمن التعريف بأدب الالتزام ومواقف الآداب العالمية والعربية منه، فهو لا ينصرف إذا أطلق على الالتزام الأدبي، وقد اهتمت الدراسة الأدبية اهتماماً مطلقاً بمفاهيمه واستطاعت أن تجسّد ذلك في الأدب، إذ ارتبط الالتزام بالأدب التزاماً موضوعياً، كما ارتبط مفهومه بتوجّسات المجتمع وقد تبّنى النقاد مواقف متباينة حسب الأهواء أو الإيديولوجيات التي عالجت هذا الأدب .

قُسّمت الآداب العالمية والعربية من حيث موقفها من الالتزام إلى مذاهب عقدية إيديولوجية كالواقعية الاشتراكية والتي تزعمتها المدرسة الشيوعية السوفيتية والوجودية التي تزعمها سارتر، وإلى مذاهب حرّة ليبرالية كمذهب الفنّ للفنّ، كما أضيفت إليها مواقف فردية لبعض المشهورين من الأدباء في مختلف أنحاء العالم .

الكلمات المفتاح : التزام - واقعية اشتراكية - وجودية - مذهب ليبرالي.

Abstract : This study falls within the definition of commitment literature and the positions of international and Arab literature from it. It does not go away if it is launched into literary commitment. Critics have different attitudes according to the passions or ideologies that dealt with this literature.

* سعيد سنوس: saidsns@hotmail.com

World and Arab literature has been divided in terms of its position on commitment to doctrinal ideological doctrines, such as socialist realism, which is spearheaded by the Soviet and existentialist communist school spearheaded by Sartre, and to free doctrines such as the art of art, and individual attitudes of some famous writers around the world have been added to it.

Keywords: Commitment-socialist realism-existentialism-liberal doctrine.



تمهيد:

إنَّ الصِّلةَ الوثيقةَ بين الأدب والحياة لمن أكبر الأثر في إكساب كلمة الالتزام مفهومًا متميزًا، لا على مستوى الأدب العربي بل على مستوى الآداب العالميّة، ودعوة الالتزام قديمة في الفكر الإنساني فقد نادى أفلاطون بالالتزام بالأديب بالمبادئ الإنسانية والفضيلة والهداية وتوجيه الجيل ودفعه إلى الخير ويبيعه عن الشرّ ويمنعه من الانحلال والتفسّخ، وجاء بعده تلميذه أرسطو بالدعوة إلى جعل الأدب وسيلة لتطهير النفس وتخليصها من شقاها ويشفيها من أمراضها، وكلّ منهما يركّز على الغاية الخلقية في العمل الأدبي وهذا هو بيت القصيد إذ هي أساس نظرية الالتزام، فأفلاطون بعد أن طرد الشعراء من جمهوريته عاد وأدخلهم من باب آخر ألا وهو التغنّي بالفضائل وأصحابه، فافترض وجهة نظره الفلسفية على الفنّ والشعر، والتي كانت بالغة الأثر على العصور التالية له، بينما تحدّث أرسطو عن القيمة الخلقية للانفعالات التي تثيرها الأعمال الأدبية والتي تكسب الإنسان الصلابة والدراية والاعتدال، فيقوم الإنسان عواطفه ويعتدل بها ويتزع منها ما هو ضارّ بها، وقد استمرت هذه الغاية هي أساس فكرة الالتزام في الأعمال الأدبية وإن أخذت طوابع سياسية أو اجتماعية أو دينية بحسب الأعمال والأشخاص الذين يتركون آثارهم على العمل الأدبي في آداب الأمم المختلفة كالمسرحيات اليونانية وشاهنامة الفردوسي عند الفرس وكميلة ودمنة عند الهنود والذي تُرجم إلى اللغة العربية وهو كتاب ذو طابع أخلاقي¹.

فالالتزام كفكرة قد تطوّر على مرّ التاريخ مستندا على المبادئ الخلقية في كل الجوانب ولم يخل نمط من الأنماط الأدبية من الالتزام على درجات متفاوتة، فمع أنّ الأدب الكلاسيكي لم يكن أدب التزام في الأدب الغربي إلّا أنّه لم يخل من لمحات الالتزام، وظهرت الدعوة إلى ارتباط الفن بالواقع الإنساني والاجتماعي حتى يؤدّي غايته في نشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة والانحلال الخلقي وذلك

بتصوير قيمة الحياة العائلية واحترام الحقيقة باعتبارها قيمة خالدة²، فمن هذا المنطلق تراودنا عدّة إشكالات منها: ما المقصود بأدب الالتزام؟ وما هي إيديولوجيات هذا الأدب؟ وما موقف الآداب العالمية من أدب الالتزام؟ كما لا ننسى الإشارة إلى الأدباء العرب وموقفهم منه.

أولاً: تعريف الالتزام:

1- الالتزام لغة: جاء في المفهوم اللغويّ إنّ الأصل في مادّة "لزم" هو اللّزوم، والفعل لزم يلزم، والفاعل لازم والمفعول به ملزوم، لزم الشيء يلزمه لزماً ولزوماً ولازمه ملازمة ولزماً والتزمه وألزمه إياه فالتزمه، ورجل لزمة : يلزم الشيء فلا يفارقه، واللّزم هو الفيصل جدّاً³. وجاء في القاموس المحيط للفيروز آبادي (ت 837 هـ): "لزم الشيء أي ثبت ودام، ولزم بيته يعني لم يفارقه، ولزم بالشيء تعلّق به، والتزمه يعني اعتنقه، ولزَمَ كَسَمَعَ لزماً ولزوماً ولزماً ولزماً وألزمه إيّاه فالتزمه فهو لُزْمَةٌ كهُمَزَةٍ، واللّزْمُ متحرّكة فصل الشّيء"⁴.

2- الالتزام اصطلاحاً: هو لا ينصرف إذا أطلق على الالتزام الأدبي فقط، لأنّ هناك أنواعاً من الالتزام كالالتزام العقدي والخلقي والسياسي والحزبي وغيرها، كذلك لم يتفق الأدباء ولا النقاد على تعريف محدّد للالتزام الأدبي، وذلك لاختلاف مذهبهم ونزعاتهم ومواقفهم من هذا المصطلح، فقد عرّف الروائي الأمريكي نورمان ميلر (ت 2007م) الالتزام بقوله: "أنّه نوع من التعاقد أو الارتباط بشيء خارج الذات"⁵، يعني أنّ ذات الإنسان لا تستطيع أن تتحكّم في أفكاره، فهي بذلك حرة لا مقيّدة، وقد عرّفه الشاعر الاسكتلندي كريستوفر موراي جريف (ت 1978م) والمعروف باسمه المستعار هيو ماكديارميد بقوله: "أنّه التزام سياسي"⁶، فقد قرن السياسة في الوجدان الأدبي، فخصّ الالتزام بالسياسة والجهاد في سبيل الوطن ثمّ تسخير الأدب في الدّعوة، وقيّضه الدكتور غنيمي هلال (ت 1968م) في مؤلفات عدّة، وقد قصّره على الشّعْر خاصّة دون النثر، وقد ناقض بقوله زعيم الوجودية في موقفه الأوّل للالتزام، وهذا بقوله: "يراد بالالتزام الشاعر وجوب مشاركته الفكرة والشّعور والفنّ في قضايا الوطنيّة والإنسانية، وفيما يبنون من آمال ويعانون من آمال"⁷، كما عرّفه أحد روّاد الأدب الإسلامي النّاقّد الكبير مصطفى محمّد هدارة (ت 1997م) إذ يقول: "الالتزام يعني ارتباط الأديب بقيّمه أو بمبادئه أو بقضايا محدّدة تشبّهها عقله ووجدانه، فكلّ تفكير أو تعبير صادر عنه يكون من قبيل هذا الالتزام"⁸، وجاء به جبور عبد التّور في معجمه الأدبي فعرفه

بقوله: "هو حزم الأمر على الوقوف بجانب قضية سياسية أو اجتماعية أو فنية، والانتقال إلى التعبير الخارجي عن هذا الموقف بكل ما ينتجه الأديب أو الفنان من آثار"⁹، ونضيف ونقول أن لفظة الالتزام قديمة في الاستعمال اللغوي، لكن التطور الفكري الحديث قد أضاف عليها معنى اصطلاحيا جديداً، وهي أكثر ما تطلق اليوم في معرض الكلام على الفكر الأدب والفن، حيث نجد في مضامينها مشاركات واعية في القضايا الإنسانية الكبرى السياسية والاجتماعية والفكرية، وليس مقتصرًا على المشاركة في هذه القضايا وإنما يقوم الالتزام في الدرجة الأولى على الموقف الذي يتخذه المفكر أو الأديب أو الفنان فيها، وهذا الموقف يقتضي صراحة ووضوحًا وإخلاصًا وصدقًا واستعدادًا من المفكر الملتزم لأنه يحافظ على التزامه دائماً، ويتحمل كامل التبعة التي تترتب على هذا الالتزام، من هنا كان الالتزام مرتبطاً بالعقيدة، منبثقا من شدة الإدمان بها، صادراً في جميع أشكاله وأحواله عن إيديولوجية معينة يدين بها المفكر الملتزم¹⁰.

وهكذا فإن الالتزام ليس مجرد تأييد نظري للفكرة، وإنما هو سعي إلى تحقيقها، ويضيف أحد الكُتّاب في مفهوم الالتزام أن الفكر ليس منفصل عن العالم الذي يحيا فيه ولا هو مستقل عنه، بل العكس من ذلك هو غارق فيه وموجود وفاعل وحاضر، وليس العالم بالنسبة إليه مجرد مشهد يمر أمام ناظره مستقل عن فعله، إن العالم مسرح فعل ومكان للنشاط العلمي، وليس المفكر مجرد مشاهد أو متفرج على ما يدور فوق هذا المسرح بل هو مشترك في التمثيل، يمثل دوره في مأساة الكون الموجود فيه.

ثانياً: موقف الآداب العالمية من الالتزام:

نستطيع أن نقسم الآداب العالمية من حيث موقفها من الالتزام إلى مذاهب عقدية، ومواقف متباينة حسب الأهواء أو الإيديولوجيات التي يتبنّاها النقاد كالواقعية الاشتراكية والوجودية وإلى مذاهب حرة ليبرالية، ويضاف إليها مواقف حرة لبعض المشهورين من الأدباء والنقاد في مختلف أنحاء العالم.

1- الواقعية الاشتراكية: ما من شك أن مصطلح الالتزام هو مصطلح حيادي، ولكن الشيوعية استغلته أسوأ استغلال في نظرياتها الواقعية الاشتراكية، والواقعية الاشتراكية نشأت في البداية كردّ على الرومانسية والواقعية الانتقادية المتشائمة والطبيعية السطحية، ونمت وانتشرت مع اتساع

الدراسات الاشتراكية والتطبيق الاشتراكي؛ ولما كانت الاشتراكية نظرة فلسفية واجتماعية تشمل كل فروع المعرفة والحياة فقد اهتمت بالأدب الواقعي ووجهته وجهة خاصة تناسبها، ووجدت فيه خير مصوّر للواقع وباعث للوعي وحافز إلى التغيير باتجاه التقدم، ومن هنا نشأت الواقعية الاشتراكية في الأدب وأصبحت مدرسة عالمية لها منهجها العقائدي المتميز الذي تمّ من خلاله استخلاص مدرسة نقدية سميت بمدرسة الواقعية الاشتراكية¹¹.

وقد ازدهرت الواقعية الاشتراكية في روسيا خلال القرن التاسع عشر ومهدت للثورة، وزادت قوة وانتشاراً بعد انتصار ثورة 1917م وانتقلت إلى البلدان الاشتراكية الأخرى في القرن العشرين، وهي أدب سوفياتي شيوعي النشأة إذ تمثل بالنسبة لأدباء الاتحاد السوفياتي الذين كانوا وقتها بصدد وضع الأسس لمجتمع اشتراكي مثالي ونموذجي الروح الملحمية الجديدة التي تؤسس للبطل الاشتراكي صانع التاريخ ومستقبل الإنسانية، وأضحت الواقعية الاشتراكية هي الإيديولوجية الأدبية الرسمية التي لا يجوز الخروج عنها في الإبداعات الفنية والأدبية، ذلك أن أقطاب الشيوعية أدركوا أن الفنون عامة لها أثر كبير ولاسيما الأدب في تكوين المجتمعات وتكوين العقول وصياغة الوجدان، ووعوا أثرها في دعم الأنظمة والمذاهب¹²، حتى قال دكتاتور روسيا وحاكمها جوزيف ستالين (ت1953م): "الفنانون والأدباء مهندسو البشرية"¹³، وأخذت تقبّح مبدأ الإلزام القسريّ عن طريق خطة الحرب أو الدولة، فهي تغدق على الأدباء الملتزمين أصناف الرتب والامتيازات بينما تضيق الخناق على غير الملتزمين تضيقاً يبدأ من تصنيف النقاد والملتزمين عليهم، لينتهي بنفيهم إلى سيبيريا أو إدخالهم بالعصب إلى بعض المصحّات العقلية بحجة الجنون، بمعنى الأديب الغير ملتزم في كتاباته في نظر الواقعيين الاشتراكيين هو أديب مجنون لا عقل له، وهكذا نرى أن الالتزام الأدبي أصبح إلزاماً في قبضة الدولة الشيوعية، إلزاماً قسرياً سمي بالجزيرة الشيوعية في الأدب أو سمي بالديكتاتورية في الواقعية الاشتراكية¹⁴.

وقد انتشرت الواقعية الاشتراكية في كل بلدان العالم نظيراً وإبداعاً ورأى فيها بعض كبار الأدباء العالميين مشروع بعث إنسانية جديدة، وقد سعى بعض الأدباء والمبدعين لتطوير وتحديثها، وذلك بمدّها بنفس جديد ومناهج إبداعية جديدة رغم القمع الستاليني المسلط على الرقاب، وكان نفر من

أدبائها وشعرائها يفتخرون أنهم من دعاة الواقعية الاشتراكية الملتزمين بها وهم لا يعرفون اليوم كيف يوارون وجوههم بعد أن سقطت الشيوعية وهي الخلفية العقدية التي مدّت الواقعية الاشتراكية¹⁵.

2- الفلسفة الوجودية: كان جان بول سارتر (ت 1980م) قبل الحرب العالمية الثانية يبدوا ككاتب متمرّد على الموصفات السائدة وعلى المألوف من الأمور، وكانت محاولاته المبكرة تتحرّك في نطاق يقوم أغلبه على المجانية والفردية، وهو الذي أعطى أهمية كبرى في فلسفته وكتاباته من خلال الفلسفة الوجودية المبنية على أنّ الإنسان هو مصدر هذا الوجود، ولا أهمية فيه لغير الذات الإنسانية الموجودة، وأنّ الإنسان هو الذي يصنع وجوده بحريته واختياره لأنّه مسؤول عن ذاك الاختيار¹⁶، ولكن بعد الحرب سجّل سارتر تطوّرا في اتجاه الجماعية والمسؤولية تجلّى في طرحه لمفهوم الالتزام (commitment engagement)، ولكن جاءت رؤيته لهذا المفهوم ذات طبيعة خاصّة إذ يرى أنّ الكاتب هو وحده الذي يخضع لمبدأ الالتزام دون الشعراء وسائر الفنّانين من رسّامين أو موسيقيّين أو غيرهم.

ومن خلال هذه المقولات فسّر سارتر قضية الالتزام في الأدب والوظيفة الاجتماعية له والعلاقة المتبادلة بين القارئ والكاتب، ففكرة الالتزام لدى سارتر يراها مترجمة إلى وعي الكاتب بلغته الخاصّة لأنّ الاهتمام بتوضيح شيء ما خارج الأدب يدفعه إلى التراجع والاختفاء، فالأديب لا خيار له أن يكون نصير الحقّ والخير ولا خيار له أن يكون ملتزما بمواقفه الواضحة في شؤون مجتمعه فهو في موقف سواء تكلم أو لم يتكلّم، لأنّ لكلّ من الكلام والصمت معنى وهذا موقف في حدّ ذاته¹⁷.

كذلك اتّخذت الفلسفة الوجودية من مصطلح الالتزام وليس الإلزام وسيلة لنشر مياديينها، بل علّنا لا نبالغ حين نزعّم أنّ الوجودية ذاعت وانتشرت عن طريق قصص سارتر ومسرحياته أكثر ممّا انتشرت عن طريق مؤلفاته الإيديولوجية، على أنّ الوجودية غلبت الالتزام ولم تقلبه إلى إلزام كما فعلت الشيوعية بل تركته التزاما حرّا ينبع من شعور الأديب الوجوديّ بمسؤوليته، كما أنّ سارتر أخرج الشعر من دائرة الالتزام وحصره في النثر بحجّة أنّ الحقائق هي التي تعبّر عن حجّة المضمونات، وقد جعل من تفرقه بين الشعر والنثر أساسا يتركز عليه في جعل الشعر غير ملتزم، فقد كتب: "فالشعراء قوم يترفعون باللغة أن تكون نفعيّة، وحيث أنّ البحث عن الحقيقة لا يتمّ إلاّ بواسطة اللغة واستخدامها أداة، فليس لنا إذن أن نتصوّر أنّ هدف الشعراء هو استطلاع الحقائق أو عرضها، وهم

كذلك لا يفكرون كذلك في الدلالة على العالم وما فيه، وبالتالي لا يرمون إلى تسمية المعاني بالألفاظ لأن التسمية تتطلب تضحية تامة بالاسم في سبيل المسمى، وعلى حدّ تعبير هيجل (ت 1831م) يبدو الاسم غير جوهريّ، فليس الشعراء بمتكلمين ولا صامتين، بل لهم شأن آخر، وقد قيل عنهم أنّهم يريدون القضاء على سلامة القول بمزاوجات وحشية بين الألفاظ وهذا خطأ، لأنّ يلزم لهم أن يرجّوا بأنفسهم في ميدان الأغراض التفعيية للغة ليجتثوا فيها عن كلمات توضع في تراكيب غريبة¹⁸، وبعد أن فرّق سارتر بين الشعر والنثر ووضع الشعر مع الفنون، فإنّه يؤكّد على عدم التزام الشعر والفنون المختلفة، وإنّما الذي يقع عليه الالتزام فقط هو النثر¹⁹، وليس غاية الشعراء استطلاع الحقائق أو عرضها، ولكن ما لبث بعد ذلك حتّى أدخل الشعر عندما قامت الثورة الشيوعية في تشيلي عام 1973م، إذ نلاحظ أنّه يؤكّد على الأدب بشكل خاصّ، ولكن يشير في أحيان غير قليلة إلى الرسم والشعر مصوّبا انتقاداته، وهذا يناقض نظريته في الالتزام والتي لا يخضع لها إلا النثر، ودلالة قولنا موقفه من بابلو بيكاسو (ت 1973م) حيث كان يرى أنّ الحزب الشيوعي لا يستطيع استيعابه والبورجوازية هي التي تشتري لوحاته، في حين نعلم أنّ بيكاسو فنّان مبدع وقد مرّ بعدة مدارس كالتيكسيية والسيراليّة، فهذا يوحي بأنّ سارتر كان قد مرّ في عجلة على هذه الأخيرة ولم يكن يفتن إلى تناقضاته، حيث لم يفرّق بين السيرالية في النثر وغيره من الفنون، كما لم يكن مهتماً بمراجعة آثاره السابقة وربطاً مع آرائه اللاحقة حتّى تستقيم نظريته²⁰.

3- المذاهب الليبرالية: أمّا في المذاهب الحرّة التي تسمّى الليبرالية، ولدى كبار الأدباء بما في ذلك

بعض الأدباء في العالم العربي، فإنّنا نستظهر ثلاثة مواقف متباينة:

أ- موقف يرفض الالتزام: وهذا تحت شعار الفنّ للفنّ أو الفنّ الصّافي، وهو مذهب أدبي فلسفيّ لا دينيّ قام على معارضة الرومانسية من حيث أنّها مذهب الذاتية في الشعر، وعرض عواطف الفرد الخاصّة على الناس شعرا واتّخاذه وسيلة للتعبير عن الذات، بينما يقوم على اعتبار الفنّ غاية في ذاته لا وسيلة للتعبير عن الذات، وهو يهدف إلى جعل الشعر فنّاً موضوعيّاً همّه استخراج الجمال من مظاهر الطبيعة أو إضفائه على تلك المظاهر، ويرفض التقيّد سلفاً بأيّ عقيدة أو فكر أو أخلاق سابقة²¹.

وتعريف الأدب عند دعاة الفنّ للفنّ أنّه فنّ كبير مهمته أن يستثير الشعور بالخيال والإحساس بالجمال، والجمال هو وسيلة الفنّ وغاية الفنّان، وهكذا تنظر هذه المدرسة إلى جمال الشكل وبراعة الصنعة، فمادام الأديب ماهرا في صناعته بحيث يثير فينا الإحساس بالمتعة وبراعة الصنعة فلا ينبغي أن ننظر إلى مضمونه صدقا كان أو كذبا، نافعا أو ضارا، بناءً أم هداما، ويشير الناقد بيتر فاوولر (ت 1990م) إلى الغاية من هذا الاتجاه الأدبي فيقول: "الغاية من الأدب ليست ثمار التجربة بل التجربة نفسها"²²، ويقول تيوفيل غوتيه (ت 1872م): "لا يوجد الجمال الحق إلا فيما لا فائدة منه، وكل مفيد سمح لأنه تعبير عن حاجة ما، وحاجات الإنسان دنيئة ومقرزة كطبيعته المسكينة المعقدة.. وكلّ فنان يقترح شيئا غير الجمال فليس فنانا في نظرنا"²³، ويعزّز هذه النظرة الكاتب الإنجليزي أوسكار وايلد (ت 1900م) حين يقول: "ليس هناك كتاب أخلاقيّ وكتاب مناف للأخلاق إنّما الكتب إمّا جيّدة الصياغة أو رديئة الصياغة، هذا كل ما في الأمر"²⁴، وتعتبر مسرحيته "سالومي" غمرة من غمار دعوى الفنّ للفنّ حيث لا مجال للاعتبارات الدنيئة أو الأخلاقية أو القومية عند التعامل مع نصّ كهذا.

إنّ هذه المسرحية تعرض تصويراً قوياً للحبّ الجسديّ الشهوانيّ العنيف، ولكنها تفتقر إلى المبررات التي يمكن أن تقنع المتلقّي بهذا الحب، إذ ليس من السهل أن تصدّق كيف أن "سالومي" تلك الفتاه العذراء تندفع فجأة وبدون مقدمات في حبّ "يوحنا المعمدان" لتصل إلى تلك الدرجة من الشهوة الجسدية دون الإحساس حتّى بأيّ نوع من الحياء أو الخجل، فكأنّ هذا المذهب يعزل الأدب عن الدين والقيم والمبادئ والأخلاق كما قلنا، بل عن كل عناصر الحياة الإنسانية الأصيلة النقية بدعوى المتعة الفنية الخالصة.²⁵

وقد واجهت دعوة الفنّ للفنّ بعض المعارضات، فقد عاب الاشتراكيون على الدّعوة محاولة فصلها عن المجتمع²⁶، وهذا ما قاله الدكتور محمد مندور (ت 1965م) وقرّر أنّ مذهب الفنّ للفنّ لم يعد له وجود، فإنّ الدكتور محمد مصطفى هدارة قرّر هو الآخر أنّ المدرسة التعبيرية تشترك مع مذهب الفنّ للفنّ في التّظّرة نفسها، حيث يقول جويل سبنجارن (ت 1939م): "إنّه ليس من شأن الأديب نشر آية دعوة أخلاقية أو اجتماعية، وغاية ما يعنيه من الأدب توقّد الإحساس وتوهجه"، ويقال الأمر ذاته في مدرسة اللاوعي أو السيريالية أو ما فوق الواقع، لأنّها تقوم على

استبعاد المنطق ومخافة العقل ومعاداة الواقع، وتحاول أن تردّ الإنسان إلى غرائزه وقواه الفطرية بعيداً عن العقل، أو كما يعرفها رائدها أندريه بريتون (ت 1966م) في أول بيان سيريلاي أصدره بأنّها: "إملاءات فكرية في غيبة كل ضابط يفرضه العقل، وبعيداً عن كل اهتمام جمالي أو أخلاقي"، ويقولون أنّ أجل الأدب ما يقوله المجانين ومدمني الحشيش²⁷.

ب-المواقف المحايدة من الالتزام: أما الموقف الثاني لدى غير الملتزمين بالمذاهب السابقة فهو موقف محايد أو متردد بين رفض الالتزام أو قبوله، وفي هذا يقول الأديب الفرنسي جان كوكوتو (ت 1963م): "أنا محايد، أتردد أمام الالتزام"²⁸.

ونستطيع أن نضيف إلى هذا الموقف المحايد أو المتردد ذلك الموقف المتناقض الذي نراه لدى عدد من كبار الأدباء العرب وعلى رأسهم طه حسين (ت 1973م) والذي نراه يغتنم في كثير من موقفه الأدبي بأفكار معينة، ويقود المعارك الأدبية والفكرية في سبيلها، فإذا به يقول: "وإذا فالذين يقولون يجب أن يكون الأدب للحياة، ويظنون أنّهم يقولون شيئاً جديداً لا يقولون في حقيقة الأمر شيئاً، فكلّ أديب في أيّ أمة من الأمم، إنّها هو يصوّر نوعاً من أنواع حياتنا، أمّا أن يُسخّر الأدب ليكون وسيلة من وسائل الإصلاح أو سبيلاً من سبل التغيير في الحياة فهذا تفكير لا ينبغي أن ننصاع إليه ولا نتورط فيه، وليس معنى هذا بأنّ الأدب بطبعه عقيم وأنّ الأديب مؤثّر في طبعه، ولكن معناه أنّ الإصلاح والتغيير وتحسين حال الشعوب هي أشياء تصدر عن الأدب كما يصدر الضوء عن الشمس وكما يصدر العبير عن الزهرة"²⁹، ويقول أيضاً في إحدى مناظراته الأدبية: "لسنا محتاجين دائماً أن نتخذ كلّ شيء وسيلة، وأن نجعل كلّ شيء غاية، إنّما نتخذ الأدب غاية في نفسنا وليس من الضروري أن نسخر الأدب لهذا الغرض"³⁰.

ومثله الأديب توفيق الحكيم (ت 1987م) فقد كان متأثراً بأدب طه حسين، وقد أقرّ له هذا الأخير إنجازاته بقوله: "إنّ الحكيم يفتح باباً جديداً في الأدب العربيّ هو باب الأدب المسرحيّ الذي لم يعرفه العرب من قبل في أيّ عصر من عصورهم"³¹، ونرى توفيق الحكيم يعلن بأنّ الأديب يجب أن يكون حراً لأنّ الحرية هي نبع الفنّ، وبغير الحرية لا يكون أدب ولا فنّ ويتّضح ذلك بقوله: "إنّ مطامع الناس شاءت أن تمتدّ أياديها الفانية إلى هذا الجوهر السّاري وهو الفنّ لتحقره في مدح الحكام ولأجل المال، أو لنشر الدّعوة في الدّين أو السياسة من أجل الثواب أو الجزاء، ولكنّ كلمة الفنّ هي

العليا دائما³²، ويقول أيضا: "أما إذا كان في إمكاني وجود فنّ يحكم المجتمع دون أن يفقد ذرّة من قيمته الفنيّة العليا فأني أرحّب به وأسلم عن القول بأنّه الأرقى ولكنّ هذا لا يتهيأ إلّا للأفذاذ من الأدباء"³³، ويقول مرّة أخرى: "لو علم رجل الفنّ خطر مهنته لفكّر دهرًا قبل أن يخطّ سطرا"³⁴، فحرية الأديب عند توفيق الحكيم لا تتناقى عنده مع مبدأ الالتزام إلّا أنّه يريد أن يكون التزام الأديب أو الفنّان شيئا آخر ينبع من أعماق نفسه.

ج-موقف يقبل الالتزام: أمّا الموقف الثالث لدى غير الملتزمين فهو موقف يقبل الالتزام، ويأخذ بهذا الموقف الكثير من الأدباء والنقاد العالميين، حتّى يقول الدكتور محمد غنيمي هلال: "يخطئ من يعتقد أنّ الاتجاه العامّ في الأدب الملتزم يمثله الوجوديون وحدهم أو يمثله سارتر وحده، والحقّ أنّ الأسس العامّة للالتزام تتمثّل في تيار النّقد الغالب على العالم الغربيّ"³⁵، إذا غنيمي هلال جعل النّقد الغالب في أوروبا هو مذهب الالتزام، ونستطيع أن نجعله تعريفا وننسبه للدكتور غنيمي.

وقد لخصّ الدكتور لويس عوض (ت 1990م) ما دار في مؤتمر الكتاب وشارك فيه نحو من عشرين كاتباً وأديبا حول موضوع الالتزام فقال: "إذا أردت أن تعرف نتيجة هذه المناظرة خرجت بأنّ أكثر الكتاب الذين اشتركوا في الحديث وقفوا وأعلنوا أنّهم يؤمنون بالالتزام، أي يعتقدون بأنّ كلّ كاتب لابدّ أن يكون مرتبطا بقضيّة أو بأخرى، ويقول الشاعر والناقد المعروف توماس ستيرنز إليوت (ت 1965م) عن مهمة الشعر وعلاقته بالمجتمع: "أظنّ أنّ أوّل مهمّة من مهمات الشعر هي على وجه اليقين : إثارة المتعة، ولكن للشعر دائما هدفاً أبعد من الهدف الخاص أو المعين، وهو أن الشعر يحاول دائما إيصال تجربة جديدة ما، أو إلقاء ضوء جديد على شيء مألوف، أو التعبير عن شيء بيدنا ولم نستطع أن نصفه في كلمات، مما من شأنه أن يغني وعينا، ويرهف حساسياتنا وليس بشعر على الإطلاق ما لا يثير في الإنسان هذين الأمرين"³⁶، وفي هذا أيضاً يقول الشاعر والناقد الأمريكي الكبير ستيفن سبندر (ت 1995م): "الشعر ليس مجرد تصوير لحظة احمرار وجنات الحببين أو رؤية جمال زهرة أو روعة لون الغروب، بل الشعر هو الذي يروي الحياة كلّها، بل وما بعد الحياة"³⁷.

ومن رواد النهضة الأدبية الذين أخذوا بالالتزام كاتب الإسلام الكبير الأستاذ الناقد مصطفى صادق الرافعي (ت 1937م) رحمه الله تعالى، الذي التزم بالتصدي لدعاة التغريب في الفكر والأدب، وكان من الداعين إلى أدب الالتزام وضرورة أن ينهض بما ينبغي عليه في المجتمع. ومن كبار الأدباء العرب الذين وقفوا من الالتزام هذا الموقف الإيجابي دون أن يكونوا منضوين تحت مذهب أدبي عقدي أو غير عقدي الأديب الكبير محمود تيمور الذي يقرر أن الرسالة الملقاة على عاتق الفنان — أيّا كان — هي رسالة إنسانية تقتضي منه الإحساس بالحياة التي يحياها، والتعمق في المجتمع الذي يعيش فيه، وتركيز ما يلتمع في ذلك المجتمع وفي تلك الحياة من مثل كريمة، تدعو إلى حرية وحق وخير وسلام³⁸.

ويقول الدكتور شوقي ضيف عن علاقة الأديب بالمجتمع: "الذي لا شك فيه أن الأديب لا يكتب أدبه لنفسه وإنما يكتبه لمجتمعه، وكلّ ما يقال عن فرديته المطلقة غير صحيح، فإنه بمجرد أن يمسك بالقلم يفكر فيمن سيقروا به، ويحاول جاهداً أن يتطابق معهم، ويعي مجتمعهم وعياً كاملاً بكل قضايا وأحداث ومشاكله لسبب بسيط، وهو أنه اجتماعي بطبعه، ومن ثمّ كانت مطالبته أن يكون اجتماعياً في أدبه مطالبة طبيعية"³⁹.

أمّا الأدباء والنقاد الذين أخذوا بالالتزام منطلقين من مذاهب عقدية متنوعة فقد كانوا فريقين اثنين: فريق يلتزم بالمذاهب العقدية المأخوذة عن الغرب وهي المذاهب الاشتراكية والوجودية والحدائية بصورة عامة، وفريق يلتزم بالتصور الإسلامي الذي جاء رداً على التزام الفريق الأول وإيمانا بضرورة أن يسود النهج الإسلامي الحياة عامة والأدب بشكل خاص، والأديب الإسلامي مسلم أولاً، ثمّ أديب ثانياً، وليس للأديب خصوصية تبيح له أن يخرج عن الإسلام بحجة الموهبة الأدبية، فالموهبة الأدبية لا تستلزم الخروج عن حدود الدين.

خاتمة:

وختاماً نقول أنّ فكرة الالتزام رغم تعدّد أنواعها كالتزام العقدي والسياسي والحزبي والخلقي، لا تنصرف أن تطلق على الالتزام الأدبي فقط، ولم يتفق الأدباء ولا النقاد على تعريفها، وذلك لاختلاف مذاهبهم وعقائدهم ومواقفهم من هذا المصطلح، فقد كانت هناك مواقف ومذاهب متباينة حسب الأهواء التي تبناها هؤلاء النقاد والأدباء، وقد قسّموا بأرائهم فكرة الالتزام إلى مذاهب

عقدية إيديولوجية كالواقعية الاشتراكية فكان لها أنصار ومؤسسين ووجودية والتي تزعمها سارتر وتبعه نقاد وأدباء كبار، ومذاهب ليبرالية حرّة كمذهب الفنّ للفنّ وأضيفت إليها بعض المذاهب لبعض الأدباء والنقاد المشهورين في مختلف أنحاء العالم، فتحزّبوا وكان كلّ حزب متعصبا لرأيه وقوله، وبما لديهم من الأفكار والآراء فرحين.

فمن هذا استخلصنا بعض النقاط وقد بينّا فيها زبدة ما كتبناه سابقا، وسنحصرها فيما يلي:

- الالتزام في الأدب أمر ضروري، وأنّ الأديب مسؤول بحكم التزامه عن كلّ ما يكتبه.
- الفكر عند الاشتراكيين انعكاس للمادة غير مستقلّ عنها، بينما هو عند الوجوديين حرية مستقلة تماما تتأثر بالمادة إلى حدّ ما.
- أدب الالتزام ليس محصورا على الاشتراكيين ولا الوجوديين، وإنما هو عمل ذو هدف.
- حرية الأديب لا تتنافى مع مبدأ الالتزام، فلا بدّ أن يكون التزام الأديب ينبع من أعماق نفسه

➤ أكثر رواد الأدب العربي كانوا من المحايدين لموقف الالتزام في الأدب، فقد رفضوا الالتزام الذي يصون حرية الأديب، دون أن يرفضوا عمليّا الالتزام الطوعي العفوي.

➤ الوجودية غلبت فكرة الالتزام ولم تقلبه إلى إلزام كما فعلت الاشتراكية، والتي أصبح هذه الأخيرة (الاشتراكية) الالتزام الأدبي عندها إلزاما في قضية الدولة الشيوعية إلزاما قسريّا يسمّى "الجبرية الشيوعية في الأدب".

وفي الأخير لا بدّ من معرفة أن الالتزام الأدبي هو التزام عقيدة والتزام أخلاق، ولا بدّ على الأديب أن يفكر دهرًا إن أراد أن يكتب سطرًا، عكس ما نراه في أدبنا الحالي فقد جعله بعض الأدباء حرًا طليقًا يحوم أيما يشاء ووقتًا شاء، ولا أقول بالإلزام هنا بتاتا وإنّما لا بدّ على الأديب إذا أراد أن يكتب أن تتنافى حريته مع مبدأ الالتزام شرط أن يكون من أعماق نفسه خالصا لا منحرفا.

هوامش:

¹ عبّاس محبوب : الأدب الإسلامي قضايا المفاهيمية والنقدية، عالم الكتب الحديث (عمان:الأردن)، الطبعة الأولى، 2006، ص113.

- ² المرجع نفسه، ص 114.
- ³ ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: أحمد عامر حيدر، ج12، دار الكتب العلمية (بيروت: لبنان)، الطبعة الأولى، دت، ص 641، باب الميم.
- ⁴ محمد بن يعقوب الفيروز آبادي مجد الدين : القاموس المحيط، تقدم: ابو الوفا نصر الحوريني المصري الشافعي، دار الكتب العلمية (بيروت: لبنان)، دط، دت، ص 126، باب الميم.
- ⁵ لويس عوض: الاشتراكية والأدب، اتحاد الكتاب العرب (دمشق: سوريا)، ط1، دت، ص 121.
- ⁶ المرجع نفسه.
- ⁷ محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر العربية (القاهرة: مصر)، الطبعة الأولى، 1997، ص 456.
- ⁸ فوزي تاج الدين محمد: الأدب بين الالتزام والحرية، مجلة رابطة الأدب الإسلامي العالمية، العدد 68، 12-04-2017، <https://adabislami.org/magazine/2017/04/2899/153>.
- ⁹ جئور عبد التور : المعجم الأدبي، دار العلم للملايين (بيروت: لبنان)، الطبعة الثانية، 1948، ص 31.
- ¹⁰ أسماء محمد الزريقات: النقد العربي الحديث "محمد سيف الدين الإيراني أتمودجا"، دار جليس الزمان (الأردن)، الطبعة الأولى، 2011، ص 21.
- ¹¹ عوض عقيلة عوض: مذهب الواقعية، مجلة البحث العلمي في الآداب، جامعة عين شمس (مصر)، المجلد الثاني، العدد 20، 2019، ص 548.
- ¹² الطيب بودربالة، السعيد جاب الله : الواقعية في الأدب، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر (بسكرة)، العدد السابع، فبراير 2005، ص 10.
- ¹³ عبد الرحمن رأفت باشا : نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، دار الأدب الإسلامي (القاهرة: مصر)، الطبعة السادسة، 2008م، ص 150.
- ¹⁴ ينظر: المرجع نفسه، ص 151.
- ¹⁵ ينظر: بودربالة الطيب وجاب الله السعيد، الواقعية في الأدب، ص 10.
- ¹⁶ عباس محجوب : الأدب الإسلامي قضاياها المفاهيمية والنقدية، ص 120.
- ¹⁷ ينظر: المرجع نفسه.
- ¹⁸ جان بول سارتر: تقدم الأزمة الحديثة ضمن الأدب الملتزم، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الآداب (بيروت)، الطبعة الأولى، 1965، ص 07.
- ¹⁹ المرجع نفسه، ص 14.
- ²⁰ المرجع نفسه، ص 96.

- ²¹ حبيب بوهروز: شعرية المرأة الخليجية وفحولة اللغة، مجلة الفيصل (الرياض: المملكة العربية السعودية)، العدد 481-482، نوفمبر 2016، ص 83.
- ²² عبد القدوس أبو صالح، الالتزام في الأدب، نادي الأحساء الأدبي (الأحساء : المملكة العربية السعودية)، 1-12-2015، <https://www.youtube.com>.
- ²³ أحمد فلاق عروات: تطور شعر الطبيعة بين الجاهلية والإسلام، ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر)، الطبعة الأولى، 1991، ص 150.
- ²⁴ المرجع السابق.
- ²⁵ ينظر: أوسكار وايلد : سالومي، ترجمة: عبد الرزاق محسن الخفاجي، دار البحار للطباعة والنشر (بيروت: لبنان)، الطبعة الأولى، 2004، (بتصرف).
- ²⁶ ينظر: لويس عوض، الاشتراكية في الأدب، ص 17.
- ²⁷ عبد القدوس أبو صالح، الالتزام في الأدب، <https://www.youtube.com>.
- ²⁸ المرجع نفسه.
- ²⁹ فرج علام : لقاء المتعة والمنفعة، الملحق الثقافي لصحيفة الإتحاد، صحيفة الإتحاد (الإمارات العربية المتحدة)، <https://www.alittihad.ae/article/94082/2011>.
- ³⁰ المرجع نفسه.
- ³¹ إبراهيم خليل إبراهيم: الحكيم مع الصحفي والباحث، دنيا الوطن (فلسطين)، ط 1، 2007، ص 03.
- ³² سلسلة أبحاث المؤتمرات: توفيق الحكيم متجدد، المجلس الأعلى للثقافة (مصر)، دط، 1998، ص 90.
- ³³ توفيق الحكيم، في الأدب والفن، تعديل: محمد الدريني بن سيد خشبة، مجلة الرسالة (القاهرة: مصر)، العدد 562، 20 ديسمبر 1943، <https://ar.wikisource.org>.
- ³⁴ المرجع نفسه.
- ³⁵ محمد غنيمي هلال: قضايا معاصرة في الأدب والنقد، دار نهضة مصر للطبع والنشر (القاهرة: مصر)، الطبعة الأولى، 1998، ص 147.
- ³⁶ لويس عوض: الاشتراكية والأدب، ص 216-217.
- ³⁷ بشير تاويريريت: الشعرية والحدائث بين أفق النقد الأدبي وأفق النظرية الشعرية، دار رسلان (دمشق: سوريا)، الطبعة الأولى، 2008، ص 69.
- ³⁸ عبد القدوس أبو صالح، الالتزام في الأدب، <https://www.youtube.com>.
- ³⁹ فرج علام: لقاء المتعة والمنفعة، <https://www.alittihad.ae/article/94082/2011>.